روح الصومعة (١)

في معترك الحياة المادي

سادتي :— تهجع روح الشعب دهراً او دهوراً ، ثم تستيقظ . ويلبث الشعب امياً مستقراً ثم تعتوره اليقظة كرجة طاغية تدفعها ريح عاتية ، وتعصف بحياته المستقيمة كنتة عتاحة ، وبنظامه المستقر كاعصار مكتسح . واذا الامة الهاجعة المطمئنة تتلظى بحمى الحياة شيباً وشباناً ، نساء ورجالاً تنهب جذوتها من اشتباك النصال آناً او تقبس شعلتها من مثار الآداب ومسروح العلم آونة اخرى

وشد ما احتشاه ايها السادة ، ان يمنعنا اندفاعنا في تيار الحياة العصرية ، والسير مع رياحها ، والاخذ بكل ما يثير ويدهش من بدائعها ، عن التريث للتأمل في هذه المظاهر . اهي تتصل باعماق النفوس وتنبثق من قراراتها ، فيلقنها الجيل الحاضر للجيل المقبل ، ويترك الآباء الامانة في اعناق الابناء ، ام هي مظاهر تطفو على وجه الحياة ، كالحباب على سطح الكأس ، ولا تتصل بجذورها ؟

ان قراءتي للتاريخ ، ولعبر العمران ، تدلني على ان المحك في كل ذلك هو امر واحد

المحك هو الحرية الروحية ، التي يدفعنا اليها اتساع افق النفس ، وسمو معاني الحياة ، والطموح الى غايات من الرفعة والنبل والجمال لا يشتاقها الا الانسان الكامل . ثم ان الحرية الروحية ، وما يلازمها من الحرية الفكرية ، أساس كل نهضة ، ولا اقول سياسية او اجتماعية او علمية ، لأن هذه المظاهر ، انما هي نواح لحقيقة خالدة ، ولا يمكن ان تجلى هذه الحقيقة ولا ان تكمل تلك النهضة الا اذا اندمجت هذه المظاهر بعضها ببعض واتصلت باعماق النفوس

قد يقال ان التفكير الحر يفضي الى تراخ هنا واضمحلال هناك وانقلاب وفوضى هنالك . اما انا فأقول : لا تسألوا عما يفضي اليه التفكير الحر ، بل دعوه يسير ، يقاوم ويقاوم ، وتصطدم حريته بحريات اخرى ، وثقوا بأن النصر النهائي لا يكون الا للفكر الصحيح . فاصطدام الافكار ينقيه ، والاختبار يمحصه ، والتنازع على البقاء في عالم الفكر كالتنازع في عالم الاحياء ، يستبقي الاحسن والاصلح

وليس المقام مقام تحليل لنهضتنا الشرقية ، ولا هو مقام موازنة نبغي منه التعرف على مكانة هذا الركن الاساسي من اركان النهضات ، في حياتنا ، فأنا اعرف وانتم تعرفون اسماء عشرات من المفكرين الاحرار ، احياء واموات ، قد ماتوا ما ماتوا في سبيل هذه الحرية ، فلم يلينوا ولم تفتر لهم قناة . ان ذكريات هذا الاضطهاد الذي لقوا ، او تلك المقاومة التي وعّرت امامهم السبيل ، لن تذهب ادراج الرياح ، في امم تتوثب الى النور ، وتتلظى بحمى الابداع في ميادين الجهاد الانساني . كلا ورب الحق ! ان

(١) من الخطبة التي القاها رئيس تحرير المقتطف على جمهور كبير من اعيان نابلس ووجهائها في لوكاندة فلسطين بدعوة من الوجيه فخري حافظ طوقان

الذاكرة الشعبية تختزن هذه الذكريات ثم تطلقها قوة تدفع الى الامام وحكمة ترشد الى الطريق القويم

فروح الشعب تهجع ثم تستيقظ . ويابس الشعب آمناً مستقراً ، ثم تغمره اليقظة كموجة ، وتعصف بحياته كفتنة ، وبنظامه كاعصار ، فتهز حياته من اركانها

قال الدكتور بطلر ، رئيس جامعة كولومبيا من سنوات في مقال جميل ، ان مركز الثقل في العمران الحديث ، انتقل من سياسة المبدأ الى سياسة المنفعة ومن العناية بمشكلات الحرية الى العناية بمشكلات الثروة ولو ان الناس يعنون في مقدمة ما يعنون به ، بالشعر والفلسفة والحياة الروحية ، لكان اعظم الاحياء واعلام مقاماً واعظمهم نفوذاً ، هم الشعراء والفلاسفة والحكماء ... أما انهم ليسوا كذلك فدليل على روح العصر

هذا حكم غربي على روح الحضارة الصناعية الاقتصادية الغربية التي تكاد تكتسحنا

أما نحن القائمين على القنطرة التي تصل بين الشرق والغرب ، حيث يلتقي المشرقان والمغربان ، فجدير بنا ان نعمد لجعل هذه البقاع المباركة ، مهداً لنهضة روحية غرضها اخضاع وسائل المادة لاغراض الروح العليا ، فنجعلها وسيلة لبناء الحياة الأدبية السامية في الافراد والامم ، ورابطة تحكم ما بين الشعوب بصلة الصداقة والتفاهم والتعاون لتحقيق تلك الاغراض

هذا يجب ان يكون لبّ الثقافة الشرقية الجديدة ، والى هذا الهدف الاسمى يجب ان تتجه

ولكن الشقة طويلة ، والمخاطر جمة ومهاوي السقوط تغوينا . ننظر الى حضارة الغرب فنؤخذ بما فيها من ابداع ونحلم الى نفوسنا فنقول بلسان حالها الصناعي — ولا أقول بلسان حالها الفيلسوف : —

ما أعجب الانسان . ينقد جماهير العمال من العمل المضني بآلة . ويبلغ السدم القصية بنظارة . ويطير الى القطبين على جناحين من النسيج والحديد . ويجلس في النتدس فيمشي الى لندن او يخاطبها وغداً قد يراها . اننا نؤخذ بكل هذا . ولكن أرضى ان نغدو عقولاً متحجرة تدبرها آلات صنعتها آلات اخرى ؟

قد يناجي الشباب نفسهُ فرحاً هازجاً وهو قابض على زمام سيارة : لاسيرنّ بسرعة مائتي ميل الى القمر . . . كل ما تفعله يا أخي رهن الروح التي تقبل بها على عملك . أتتقدم اليهِ كقطعة منفعة من الانسانية لا تعلم من اين أنت ولا الى اين تقصد ولا لماذا تسير ؟ ومتى وصلت الى القمر فماذا يمثل لك القمر اذا لم تأخذ اليهِ الا عقلاً ضيقاً وروحاً مستعبدة تحيط بها كرة او اسطوانة من الفولاذ ؟

اننا نؤخذ اذ نرى الالعوبة الميكانيكية ! ! أفكتفي بذلك أم نؤثر ان نكون جميعاً ، الرجل الذي يحلم احلاماً ويرى رؤى ويظل يحلم ويرى حتى تدبر احلامه ورؤياه قواعد واصولاً تقوم عليها صلته باخيه الانسان ! ليس في هذا الكلام دعوة الى الاعراض عن الغرب ، ولكن فيهِ دعوة الى اخضاعه . انا لا اقول اعرضوا عن العلم ، بل اقول ارتفعوا بالعلم الى مستوى الروح حتى ينسجم الاثنان في سبيل الخير العام . أنا لا اقول اصدفوا عن الصناعة بل اقول يجب ألاّ تلهينا الصناعة عن قوى الابداع التي وراءها . انا لا اقول لكم اقبعوا في صوامعكم واعتصموا بقمم جبال بل اقول انزلوا الى ميادين الحياة ولا تنسوا روح الصومعة في التغلب على مخاطر الحياة ، او روح القمة التي تشرف على السهل الفسيح

كذلك علمنا أنبياؤنا في قديم الزمان . وكذلك يجب ان نعلم العالم اليوم